جبلٌ من الجبل

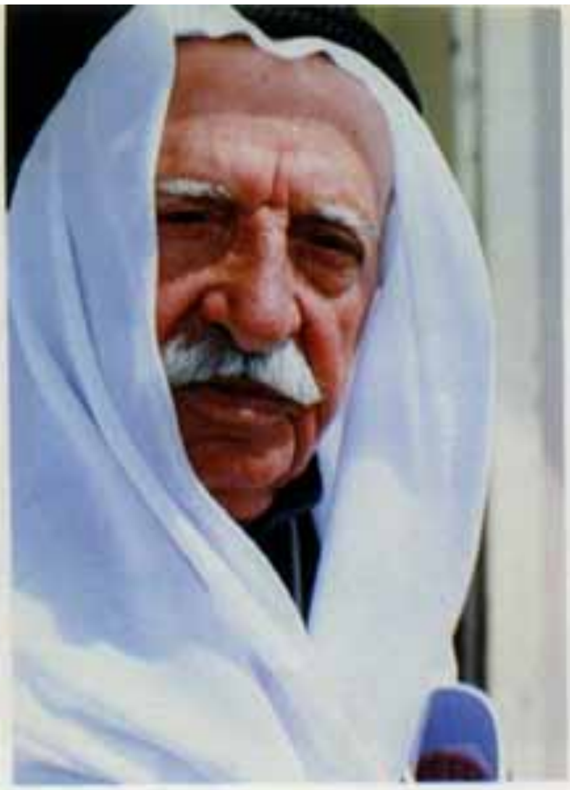

زيد الأطرش.. العزة والشموخ والفروسية

بين السمو المتالق النادر والتواضع الجميل، ثمة كلمات عذبة مشحونة بالذكريات ونغمات البطولة، وبلهجة كثيراًماتضفي على الشحوب سحر عالمه، إنه الأمير زيد الأطرش، المجاهد والاخ والملازم للقائد الكبير «سلطان باشا الأطرش»، تجد في عينيه الزرقاوين صفاء السماء وعمق البحر، وفي ملامحه شمم العروبة، ومهابة الرجل الواثق بنفسه، يبدو في لباسه العربي نموذجاً للإنسان العربي الزين، رغم خفة الظل التي يتمتع بها. يعرف كيف يفرض احترامه وحبه على من حوله..

لانعلم إذا كنا ببعض السطور القادمة عن حياة «السلطان»، كما يرويها لنا الامير زيد، قد توغلنا إلى الآفاق البعيدة ودخلنا الحرم المقدس وفتحنا قارورة الطيب أمام القارىء لتنتشر في أجوائه الروائح العطرة، وكيف لنا دخول هذا العالم الزاخر بالروعة والجمال والسحر والجلال والطافح بالنبضات والذكريات والتضحيات، دون أن نشرك القارىء العزيز فيه.. ولسوف نرحل معاً، في جولة من ذكريات التاريخ مع سلطان باشا الأطرش، لننعم بلحظات حلوة، في محراب مضافة الامير زيد، بدأت رحلتنا مع الذكريات. والأمير زيد الذي يحمل فوق كتفيه ثمانية وثمانين عاماً، زاخرة بالبطولات والعطاء هو علم من أعلام الثورة، قائد وبطل مقدام، رافق الباشا في كل مراحل حياته وترحاله وبطولاته وذكرياته. فالحديث عن سلطان باشا، لايكتمل دون أن نغرف من هذا البحر الصافي العميق الزاخر بالذكريات. بدأ الأمير زيد يطل بنا من ذروة عالية على مروج التاريخ، وينتقل بحديثه من قمة إلى قمة ومن مكرمة إلى مكرمة يغرز فوق كل منها راية خفاقة يغمرها بالعطر والشذى، ليصف لنا المجاهد الكبير وقائد الثورة السورية الكبرى «سلطان باشا الأطرش»، طفولته، شبابه، صفاته، زهده، تواضعه، شجاعته، كرمه، وبعض الروايات عنه قائلاً:

ضريح المرحوم سلطان باشا الاطرش في القريا

طفولته:

ولد سلطان في بلدة (القريا)، إحدى قرى المقرن القبلي في الخامس من آذار عام 1891 ، وهو أكبر إخوته، وعندما كانت والدتنا في

الأمير زيد الأطرش، يروي لنا صفحات

مطوية من حياة سلطان باشا الأطرش

المغفور له المرحوم
سلطان باشا الأطرش

أسلحة قائد الثورة السورية، التي قارع الاحتلال بها

شهرها التاسع، حلمت بأنها تمتطي «قوس قزح»، وعندما استفسرت عن الحلم من شيخ تقي في المنطقة قال لها: «إنك ستلدين ولداً سيكون له شأن كبير في عصره، وولد سلطان».

التزم منذ صغره بفضائل قومه الاجتماعية، وبالمبادىء الاخلاقية السائدة وكان من الحريصين على احترامها، ومنذ طفولته تحلى بالتقوى وآمن بالتعاليم الدينية.

وعند بلوغه الخامسة من عمره 1895، شهد الجند العثمانيين لأول مرة في بلدته، حيث اصطحبه معه والده أثناء حضوره لمقابلة ممدوح باشا، المخيم مع عساكره في بيادر القريا، ورأى بأم عينه كيف يساق الشباب إلى الجندية، وكيف ينفذ الجند إجراءات الدولة مستعملين الاساليب القمعية، وكان والده وعمه فايز من عداد المنفيين من الجبل، فاضطرت والدته تحت وطأة الخوف من انتقام الجند العثمانيين، أن ترحل إلى قرية العانات، ثم إلى التل المعروف (بالعبد وأولاده) في البادية الشرقية وهذا النوع من الرحيل إلى المناطق الوعرة في اللجاه والصفا كان يعرف (بالهجيج).

هذه الفترة المضطربة من تاريخ الجبل لم تسمح لسلطان أن يدخل أحد الكتاتيب الخاصة، التي كانت تعلم مبادىء الدين والقراءة والحساب، حتى أتيح له تعلم ذلك فيما بعد، خلال الثمانية عشر شهراً، التي قضاها في الجندية في البلقان.

وكان سلطان منذ طفولته شغوفاً بسماع قصص قومه وأخبار معاركهم وكثيراً ما كان يطلب من عمه فايز الذي كان يحبه كثيراً أن يرويها له، وكان يطرب لسماع القصائد لذلك كان يتواجد بشكل دائم في المضافة.

ومارس قبل بلوغه سن الرشد، هوايات القنص وركوب الخيل والنزول إلى حلبات السباق، والتدرب على استعمال السلاح الأبيض والبنادق المعروفة آنذاك، وكان يحب الرحلات العائلية إلى مقامات الأنبياء والأولياء المنتشرة في أماكن متفرقة من الجبل.

زواجه:

جرياً على عادة قومه، تزوج في سن مبكرة أي في التاسعة عشرة من عمره، قبل سوقه إلى الجندية عام 1901 من ابنة عمه فايز (غازية)، ولكنها توفيت بعد فترة قصيرة، دون أن يرزق منها أطفالاً، وبعد عودته من الخدمة الإجبارية تزوج ابنة الشيخ أبو فخر من بلدة نجران واسمها (تركية) وهي ابنة

الثوار في بيت الشعر أثناء وجودهم في وادي السرحان بالسعودية بين 1928 - 1937

الرئيس حافظ الاسد يقرأ الفاتحة على ضريح المرحوم سلطان الاطرش في 26 آذار 1982

عمته، ورزق منها جميع أولاده.

كان في حياته الأسروية الزوج العفيف والأب الحنون، ورب البيت المثالي الذي لم تمنعه ظروف الجهاد والتشرد من الاهتمام بأبنائه وتوفير السعادة لهم وتعليمهم، لم يبذر على الإطلاق مهما كان يسره، فهو بعيد كل البعد عن هذه الصفة وعن حب الجاه والفخفخة، وكان ينفق الاموال عند اللزوم في الكرم والضيافة. ويروي لنا الأمير زيد قصة عن عدم اهتمامه بمباهج الحياة فيقول: لقد طلبت أكثر من مرة من سلطان أن يرصف مضافته، المرصوفة حجارتها بشكل غير منتظم، فكان يضحك ويقول لي: «لاتشغل بالك بالأمور الفارغة، المجال واسع لعمل طيب، إن وضعنا البلاد أو لم نضع لايغير من سلطان شيئاً..».

تواضعه:

اقتبس التواضع عن والده الذي رفض أن يكنى «بأبي سلطان» بصفة سلطان ابنه البكر، بل باسم ابنه الثاني علي أي «بأبي علي» تأكيداً لزهده بالتسميات التي تعني الجاه الزمني وتدخل في باب الكبرياء والعظمة..

لم يشرب الخمر، لم يدخن، ولم يبتذل في حياته، بل عاش عيشة الزهاد والأولياء الصالحين، فضل السكن في قريته على المدينة، وداره الريفية التي بناها من ماله الخاص على القصر الذي قدمته له الحكومة، واعتبره ملكاً للشعب. عاش في بيته المتواضع حياة هانئة بعيداً عن ضوضاء المدينة قريباً من الطبيعة وكم شوهد جالساً على صخرة أو بين أكداس القمح، أو مفترشاً الارض التي أحب. وفي إحدى المرات، وصل وفد رفيع المستوى من دمشق لزيارته، فقيل لهم إنه يعمل في الحقل.. استغربوا.. ثم توجهوا إلى هناك.. كان سلطان يفترش الارض لينعم بملاصقة تلك الحبيبة، ويشم رائحة التراب الغالي الذي قضى معظم حياته يدافع عنه.

كانت العصافير تزقزق في أعشاشها وكأنها تغني لحناً خالداً لبطل قاوم الصيادين لتنعم بحريتها.. ولما وصل الوفد إليه، دعاهم للجلوس مرحباً بابتسامته المعهودة.. فحاول أحدهم وضع «منديل» عازل على الأرض ليجلس عليه.. فنظر إليه «السلطان» نظرة عتب وقال: «لاتجعلوا بينكم وبين الأرض عازل».

زهده وبساطة عيشه:

أحب السلطان بساطة العيش والبعد عن التصنع والمباهاة والتكبر، فكان ينام في غرفة خلوته الخاصة التي هي في منتهى البساطة بدون فراش، وعلى بساط رث عتيق، وعلى باب الخلوة كتبت الحكمة التالية «يقيني بالله يقيني»، وترك لزوجته تدبير شؤون المنزل.

سكن في داره والتي بناها عام 1937 وأضاف إليها بعض الغرف على فترات متقطعة، وهي تتألف من مضافة معدة لاستقبال الضيوف والزوار، وتقابلها بعض الغرف الصغيرة، تفصلها عنها دار مكشوفة، وجميعها تدل على بساطة العيش وتثير إعجاب الزائرين.

كما الريح... كان.. لايتوقف عند مسرات الدنيا.. ولذلك كان يندهش من الأمير فيصل الذي أقبل على الحفلات الراقصة في دمشق.. ورغم الدعوات الموجهة إليه كان يأبى الحضور.. ويستخف بهذه الترهات الزائلة.. وكان الامير يتجنب لومه..

وكما الطود.. على حدود الوطن.. كان همه حماية التراب المقدس، وهذا مايعرفه القاصي والداني.. لذلك لم يجبره أحد على الانغماس في أطايب الدنيا، لانهم يعرفون همه الأول والأخير.

شجاعته وإقدامه:

كان قائداً عسكرياً اكتسب كفاءته العسكرية وخبرته القتالية من مجتمعه الحربي، وساحات المعارك وتسلم عن جدارة القيادة العامة للثورات السورية، بفضل ثوريته ومواقفه البطولية ووطنيته الصادقة وصفاته السامية، وقوة شخصيته، وإبائه وحيويته.

شجاع في اتخاذ القرارات مهما كانت

وفد من ثوار دمشق في زيارة إلى سلطان باشا الاطرش في وادي السرحان بالسعودية يتقدمهم المجاهد المرحوم محمد الاشمر ـ الثاني إلى يسار المرحوم سلطان الاطرش ـ

قائد الثورة السورية المرحوم سلطان باشا الاطرش احب الاطفال ورعاهم حتى أثناء مرضه

صعبة، مقدام في سلوك طرق الجهاد مهما كانت خطرة.

قائد حربي شجاع لقوم محاربين شجعان، والشجاع يحب أمثاله ويقدرهم. ويروى عنه أنه أثناء ذهابه إلى المسيفرة على رأس الفرسان، إذ بأحدهم يتخطاه ويسبقه، فلما أراد إرجاعه قال له الفارس: «لك أن تتقدمني في التشريفات لا في المعركة»، فسرّ من جوابه وقال له: «إن قوماً فيهم أمثالك لايغلبون»..

برزت شجاعته وقوته منذ صغره، جزيه عمه فايز وهو ابن تسع سنوات في مواجهة مع ثمانية أولاد فانهزموا أمامه، ولحق بهم، عندها أرجعه وقال في نفسه: «إذا كان اليوم صغيراً وهذه أفعاله، فكيف يكون يوم يشب ويكبر»..

يروى عن شجاعته وإيمانه هذه الحادثة: بينما كان في بلده العفينة، قامت طائرات فرنسية عديدة بقصفها قصفاً مكثفاً أصاب البيت الذي يوجد فيه، فأسرع إليه من احتموا من القصف ومن تصدوا للطائرات، فوجدوه يقرأ في كتاب حكمته الشريفة الذي يحتفظ به دائماً في جيبه رابط الجأش محاطاً بالانقاض لايكاد يُعرف من الغبار الذي يعلو جسمه وثيابه.

يمتلك الشجاعة الأدبية بالإضافة إلى الشجاعة الجسدية، فإذا أخطأ اعترف بالخطأ وإذا قاتل كان العربي الشهم الذي يحافظ على شرف القتال ويتبع أصوله، لم يرضَ أن يقطع الماء عن الجنود الفرنسيين المحاصرين بقلعة السويداء وأوصل نساءهم مع المدنيين الغرباء بحراسة رجاله إلى دمشق وقال لعبد النجار:

«خذهم نحن لانحارب الفرنسيين ومعهم نساءهم، أخرج المدنيين من بينهم لنريهم كيف يكون شرف القتال أما هم فإنهم لم يعفوا عن قتل نسائنا وأطفالنا أو تدمير المنازل عليهم بالطائرات»[*].

وطنيته ونزاهته:

كان رمزاً في الوطنية والنزاهة، قضى حياته كلها في خدمة بلاده والنضال من أجل حريتها واستقلالها مرخصاً كل شيء في سبيلهما متمرداً من المصلحة الشخصية غير طامع بشيء سوى تقدم وطنه وإعلاء شانه.

بعد نشوب الثورة السورية الكبرى، وكان انذاك في أوج مجده عبر عن زهده بالمناصب قائلاً: «لايمكن لاحد أن يتصور بان سلطان سيكون رأساً للبلاد، بل أرغب أن أطهر البلاد أولاً، ثم أسلمها لمجلس وطني عام يسن قوانين البلاد وينتخب من يشاء»..

كان سلطان يقول: «من الخطأ أن يكون عند أي إنسان ومن أية فئة شعور الاقلية فليس عندنا أقلية أو أكثرية، كلنا إخوان في الوطنية».

وهو إلى ذلك عربي صميم آمن بالعروبة، فكان في الثورة العربية قائداً مناضلاً مساهماً في طرد الاتراك، والفرنسيين، عاملاً من أجل العروبة ووحدة أبنائها وفي بياناته ومنشوراته ونداءاته دعوات كثيرة وشعارات عديدة تجسد إيمانه بحقوق وطنه وبشعبه العربي وبالشعوب العربية التي يريدها موحدة، من هذه البيانات:

«باسم الوطن السوري، وباسم الاستقلال المبارك أحييكم وأحيي فيكم العروبة الصادقة والالفة القومية، وأستصرخ منكم أمة عربية ـ أيها العرب الاماجد أهل النجدة والنخوة».

حريص على سمعة وكرامة وطنه وقومه، يثور بعنف إذا ماأهينت، وقد يهادن لكنه

إحدى اللقاءات الشعبية في مضافة سلطان باشا الاطرش بالقريا، يظهر في الصورة الامير مجيد أرسلان، وخلفه إلى اليسار المرحوم كمال جنبلاط

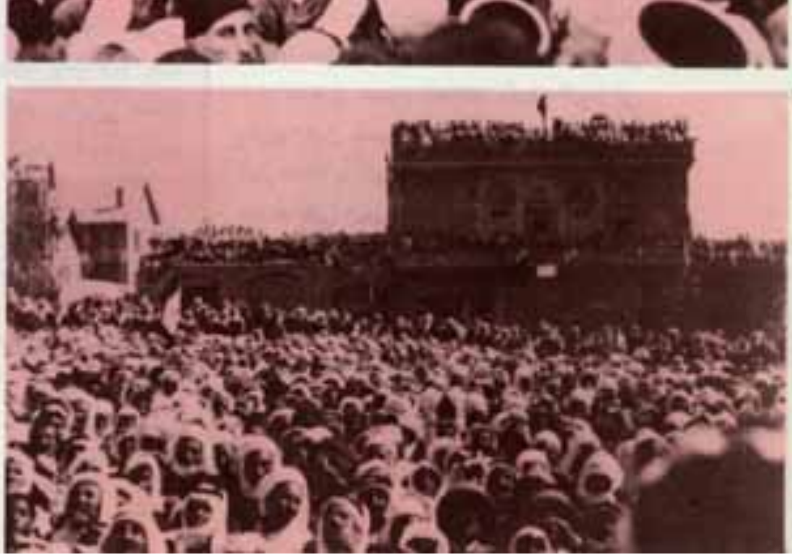

الاحتفال بعودة الثوار من وادي السرحان في السعودية، أمام دار السرايا عام 1937

زيارة الوفد اللبناني بعد استقلال سوريا، ويظهر الامير مجيد أرسلان وإلى يمينه اللواء المتقاعد أبو عساف، والمرحوم كمال جنبلاط، والمرحوم الشيخ محمد أبو شقرة

مضافة الباشا.. وتبدو إلى يمين الصورة وصيته إلى أبناء بلده

لايساوم على الإطلاق على كرامته وكرامة شعبه ووطنه. نزيه، نظيف الكف، غني النفس، ولو أنه أراد أن يستغل مركزه في 1925 لتمكنه من مساومة الفرنسيين على قبض الملايين لإخماد لهيب الثورة، لكنه رفض واستمر في الجهاد إلى أن تغلبت القوى العسكرية الفرنسية على قوى الثورة فالتجأ إلى قريات الملح «موقع هذه القرية» وعاش فيها سنين عديدة تحت الخيام التي لم تكن تقيه قساوة الطبيعة.. أو انتشار الامراض..

انصرف في سنواته الاخيرة أكثر من ذي قبل إلى الواجبات الدينية وعبادة ربه وقد رويت قصص كثيرة عن زهده، وتقشفه واهتمامه بالمقامات الدينية كبناء مقام (عبد مار) ومزار البلخي، ورمم مقام زين العابدين، وأصبح مزاراً، فتح أكثر من شارع، بنى أول مدرسة من مبلغ أرسل إليه بعد الاستقلال من المغترب، باعتباره يمثل الجهاد الحقيقي لإقامة نصب أو مشهد له.

لقد أنعم الله عليه بصفاء نفسي وعقلي وجسدي فبقي محافظاً على قوة عقله وذاكرته، وظل يتذكر جميع ماقام به وأسماء من جاهدوا معه، ومراحل حياته وتاريخ سوريا بالتفصيل، واحتفظ بسمعه وبصره وبمقدار من القوة مكّنه من مواصلة الانتقال في أرجاء الجبل حتى عام 1981 أي قبل بضعة شهور من وفاته بالرغم من ثقل الاعباء وثقل السنين التي أحنت ظهره بعض الشيء.

وفاته:

من الملفت للنظر أن تنتهي رحلة سبعين عاماً مع زوجته بوفاتهما المتقاربة في العام نفسه، إذ ماتت زوجته قبله بقليل، حين كانت وطأة المرض تشتد عليه لتتحول إلى غيبوبة استمرت طيلة شهر آذار، كان خلالها مئات الزائرين يؤمون القريا ليطمئنوا عليه، وأخيراً تمكن الموت من التغلب عليه بعد أن ارتد عنه في جميع المعارك، وأسلم الروح إلى باريها قبل فجر نهار الجمعة الواقع في 26 آذار 1982 فانتهى جسدياً من هذه الدنيا لكنه بقي الحي الخالد في ضمير قومه وصفحات التاريخ.

(●) مقالة عبد النجار (صفحات مطوية من تاريخ سلطان) مجلة الضحى 1971.

وصية سلطان باشا الاطرش:

إخواني وأبنائي العرب.. عزمت وأنا في أيامي الأخيرة أنتظر الموت الحق أن أخاطبكم مودعاً وموصياً، لقد أولتني هذه الامة قيادة الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي الغادر، فقمت بأمانة القيادة وطلبت الشهادة وأديت الامانة.

انطلقت الثورة من الجبل الاشم جبل العرب لتشمل وتعم وكان شعارها:

الدين لله والوطن للجميع

وأعتقد أنها حققت لكم عزة وفخاراً وللاستعمار ذلاً وانكساراً. وصيتي لكم إخوتي وأبنائي العرب: هي أن أمامكم طريق طويلة، ومشقات شديدة تحتاج إلى جهاد وجهاد، جهاد مع النفس وجهاد مع العدو، فاصبروا صبر الأحرار ولتكن وحدتكم الوطنية، وقوة إيمانكم وتراصّ صفوفكم هي سبيلكم لرد كيد الاعداء، وطرد الغاصبين وتحرير الأرض.

واعلموا أن الحفاظ على الاستقلال أمانة في أعناقكم بعد أن مات من أجله العديد من الشهداء وسال للوصول إليه الكثير من الدماء.

واعلموا أن وحدة العرب هي المنعة والقوة، وأنها حلم الأجيال وطريق مات من أجله العديد من الشهداء وسال للوصول إليه الكثير من الدماء. واعلموا أن وحدة العرب هي المنعة والقوة، وأنها حلم الاجيال وطريق الخلاص واعلموا أن ماأخذ بالسيف، بالسيف يؤخذ وأن الإيمان أقوى من كل سلاح، وأن كأس الحنظل بالعز أشهى من ماء الحياة مع الذل وأن الإيمان يشحذ بالصبر ويحفظ بالعدل ويعزّز باليقين ويقوى بالجهاد.

عودوا إلى تاريخكم الحافل بالبطولات الزاخر بالامجاد.

إني لم أر أقوى تأثيراً في النفوس من قراءة التاريخ، لتنبيه الشعور وإيقاظ الهمم لاستنهاض الشعوب لتظفر بحريتها وتحقق وحدتها وعزتها وكرامتها وترفع أعلام النصر.

واعلموا أن التقوى لله والحب للارض، وأن الحق منتصر، وأن الشرف بالحفاظ على الخلق والإبداع وإتقان العمل وأن الاعتزاز بالحرية والفخر بالكرامة، وأن النهوض بالعلم والعمل، وأن الامن بالعدل وأن القوة بالتعاون.

الحمد لله ثم الحمد لله، لقد أعطاني عمراً فقضيته جهاداً وأمضيته زهداً تبتني وهداني وأعانني باقوالي أسأله المغفرة وبه المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل.

أما ماخلفته من رزق ومال فهو جهد فلاح متواضع تحكمه قواعد الشريعة السمحاء.

سلطان الاطرش

محطات لا تنسى

المرحوم سلطان باشا الاطرش قبل أيام من وفاته

شهامة وحيلة

بين عامي 1906 -1907 م . وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، غضب الباب العالي على سلطان بن حمود الرشيد، أمير حايل في نجد، لاسباب تتعلق بالمشاكل بين أمراء حايل من آل الرشيد، وبين الامراء من آل سعود في الرياض.

وكان سامي باشا الفاروقي، قائداً للحملة العثمانية في تلك الانحاء من الجزيرة العربية، وهو نفس القائد العثماني الذي سياتي على رأس حملة إلى الجبل عامي 1910 -1911 م .

أتي بسلطان الرشيد إلى بيروت، وكان عليه أن ياخذ القطار إلى استانبول لمقابلة الصدر الاعظم. وكان لايعلم أن الباب العالي قد قرر إعدامه هناك. وأطلعه شخص من آل (سكُّر) من حي الميدان في دمشق على ماينتظره من مصير إذا واصل سفره إلى استانبول.

فر سلطان الرشيد، واختفى عن الانظار، ويبدو أن ذلك الشخص نفسه هو الذي هيا له سبل الفرار، ثم ظهر، بعد أيام، في دمشق لدى نفس الأسرة من آل (سكر). وعلم الوالي بمكانه، وطلب إلى مضيفيه تسليمه للسلطات العثمانية.

وتداول آل سكر مع أقاربهم من آل المهايني الأمر، وأعلموا الضيف أنهم لن يقبلوا بتسليمه مهما كلفهم الأمر، ولكن في النهاية لابد من غلبة الوالي واحتجاز الضيف. وسال سلطان الرشيد عن مكان آمن، دون أن يتسبب بالأذى لاسرتي سكر والمهايني، ودلوه على جبل الدروز.

قدم سلطان سراً إلى الجبل مع قافلة في طريقها إلى السويداء وقرى الجبل المختلفة، وسار مع هذه القافلة وكأنه واحد من أفرادها، وكان لايعلم (بسرّه) إلا شمس الدين أبو طافش من قرية أم الرمان، وهو الذي اتصل به آل سكر وآل المهايني، وكلفوه إيصال ضيفهم إلى مأمنه في إحدى قرى الجبل.

في أول قرية من الجبل، وهي قرية (الصّورة الكبيرة)، حل سلطان الرشيد ضيفاً على شيخها واكد زهر الدين. وقبل أن تمر ثلاثة أيام، قدمت إلى القرية المذكورة (قوة) عثمانية بغية إلقاء القبض على الاسير الفار سلطان الرشيد.

كانت السلطات العثمانية قد عرفت مقره الجديد من أحد الرعاة في تلك النواحي، عسكرت القوة في ظاهر القرية، ودخل أربعة من ضباطها، وطلبوا من واكد زهر الدين تسليمهم ضيفه، وهم يشيرون إلى القوة، وعرضوا عليه مبلغاً كبيراً من الليرات الذهبية، دون أن يرتعش أو يرتبك.. تظاهر واكد زهر الدين بالطاعة والامتثال للامر، واستلم منهم الليرات الذهبية أمام الضيف الدخيل.. ووعد بتسليمه ولكن بعد أن يتناول الجميع طعام الغداء.

قال واكد زهر الدين هذه الكلمات وحمّلها من الحزم والجزم ماجعل لها صفة القرار الذي لايقبل المناقشة، أو الاخذ والرد.. واتجه مباشرة إلى أهله وذويه يصدر إليهم الاوامر التي تحمل ذات اللهجة، وكان يبدو من ظاهرها أنها تعليمات تتصل بصنع الطعام والتعجيل بتقديمه للضيوف.. وبدأ الرجال يقومون بذبح الاغنام على مرأى من الضيف والضباط في نفس الوقت وجّه الاخرين إلى القرى المجاورة يطلب النجدة لحماية الضيف.

لم يمض وقت طويل حتى أخذت الجموع والبيارق تصل إلى القرية تباعاً، وحسب الاتفاق استقبلها أهالي الصورة الكبيرة بنفس الحماس والاهازيج، وكان النخوات تملا الاجواء.

أدرك ابن الرشيد الحيلة، وانفرجت أساريره بعد الخوف والندم.. وأدرك الضباط العثمانيون أنه لم يعد بمقدورهم أخذ الاسير وخافوا على أنفسهم، وعندها رمى واكد زهر الدين النقود الذهبية في وجه كبيرهم

وطلب إليهم مغادرة المكان بسلام وقال: (الشرف أغلى من المال) وأقبل على ضيفه يبشره السلامة والكرامة.

وتناول الجميع طعام الغداء وهم في غاية السعادة من نشوة الظفر والعزة والشهامة.. أمضى ابن الرشيد أياماً في الصورة، وخشية الحملات العثمانية المتتابعة والمفاجئة، وهم على حدود دمشق. انتقل سلطان إلى ضيافة الشيخ مصطفى النجم الاطرش (أبو علي) في قرية امتان وعلى الحدود الجنوبية للجبل. وأصبح على الحملات العثمانية أن تجتاز هذا الحاجز البشري من أقصى الجبل إلى أقصاه، كي تظفر بأسيرها وتلقي عليه القبض.

وأمضى سلطان في ضيافة (أبي علي) راعي الوجه الأخضر، فترة من الزمن معززاً مكرماً إلى أن عاد إلى بلاده.

السيدة «أم احمد» بستان شلغين

السيدة بستان شلغين امرأة عادية من قرية صميد، تزوجت من قريبها هايل شلغين، وأنجبت له ولدين هما حمد وهايل الذي تسمى باسم أبيه بعد استشهاده في الثورة السورية الكبرى 1925 م.

وقد أسهمت السيدة بستان في أحداث تلك الثورة، وبخاصة بعد انتقال ثوارها وأحداثها إلى منطقة اللجاه. وكانت مساهمتها فعالة بكل ماتملك. وهو الامر الذي يجعلها واحدة من نساء العرب الخالدات في التاريخ العربي المعاصر.

في عامي 1926 - 1927 م أخذت الثورة شكلاً جديداً في مواجهة الحملات الفرنسية المتتالية، وفي فترة الركود الثوري في كل الوطن العربي بعامة وفي بلاد الشام بصورة خاصة، واتخذت الثورة من منطقة «اللجاه» مركزاً أساسياً لها. أما «صميد» وهي قرية بستان شلغين، فهي تقع في تلك اللجاه، وتمثل معبراً ومنفذاً للثورة والثوار في كل الاتصالات والعمليات التي تقتضيها الثورة في المواجهة والاختفاء..

كانت السيدة بستان تسهم بفعالية في تلك الاتصالات والعمليات وما يلزم للثوار من مؤن وذخائر.. وكانت قرية صميد تتعرض لغارات فرنسية وحشية ومدمرة من الارض ومن الجو. وقد أسقط الثوار بعض الطائرات الفرنسية، ولا زالت أجزاء منها باقية حتى يومنا هذا في أزقة القرية يتلهى بها الصغار ويلعب بها الاولاد.. وقد كتب الجنرال أندريا، قائد الحملة الفرنسية في مذكراته عن تخوفه من غارات الثوار المفاجئة والمباغتة، وبخاصة منها تلك التي يقودها البطل الفارس فضل الله باشا هنيدي. وعندها كلفت الطائرات بملاحقته، وسقط شهيداً على أبواب قرية صميد بالذات. ولا يزال ضريحه إلى اليوم حيث استشهد. وقد رفض أهالي تلك القرية نقل رفاته إلى مسقط رأسه في قرية المجدل. واعتبروه ضيفاً شهيداً في قريتهم.

اشتهرت بستان شلغين بهذه المواقف كلها. وبعد أن احتل الجنرال أندريا مدينة شهبا، اتجه بقواته إلى قرية أم الزيتون، ثم إلى قرية مجادل غرباً وباتجاه اللجاه. ثم قصد (صميد). وجاء في مذكراته أنه طلب مقابلة السيدة بستان شلغين وزيارتها في بيتها، وحين أبلغت بهذه الرغبة رفضت مقابلة القائد الفرنسي. وهو الامر الذي زاده إصراراً على تلك المقابلة.

وعندها هيأت له مكاناً لاستقباله في «الباكيه» أي في زريبة الحيوانات. وحين أبدى الجنرال استغرابه قالت له عن طريق المترجم: أنتم وحوش، قتلتم رجالنا، وهدمتم دورنا ومساكننا، واستعمرتم بلادنا.. وذنبنا الوحيد أننا ندافع عن وطننا وكرامتنا. هذا هو المكان المناسب لكم ولامثالكم. مع العلم إلى أن طائراتكم قد هدمت بيوتنا، ولم يبق لنا مانأوي إليه.

طلب الجنرال أندريا أن يصافحها، ورفضت. وبناء على إلحاحه وضعت اصبعاً واحداً من أصابعها في خمارها (فوطتها) ثم صافحته على هذه الصورة.. وبعد انتهاء الزيارة أشعلت النار باصبعها وطهرتها من نجس المستعمرين.

كانت بستان شلغين قد حمت أسيراً فرنسياً من القتل، بعد أن أسقط الثوار طائرته، وأقنعت قومها بعدم المساس به لانه أسير، وهذا ماتقتضيه دواعي الشرف والنبالة.

أراد الجنرال أندريا أن يكافئها، وأعلن عن استعداده باسم فرنسا، للتعويض عليها، وإعادة بناء دارها، وتعليم أبنائها.. غير أنها رفضت هذه العروض، وقالت إن وطنها أولى بان يفعل ذلك كله.. وعندها رفع الجنرال قبعته وحياها بكل أدب واحترام، وغادر المكان..

وطارت بي الذكرى إلى موقف مشابه ومماثل لهذا الموقف الذي قامت به السيدة بستان شلغين. إنه موقف سبق إليه المغفور له سلطان باشا الاطرش.. وذلك في أعقاب ثورته عام 1922 م من أجل «دخيله» أدهم خنجر:

من أجل تلك الثورة حكم على سلطان باشا بالإعدام، وقصفت الطائرات الفرنسية داره ودكتها دكاً.. وفي مطلع العام التالي أصدر مندوب المفوض السامي عفواً عن سلطان ورفاقه.. وحين عاد إلى الجبل، وبخاصة في مدينة السوداء.. ورغبت السلطات الفرنسية بالتقرب منه والتودد إليه، وذلك باعتباره القائد والبطل في نظر قومه بني معروف. وعبّر عن هذه الرغبة الجنرال كاترو، الذي كان في مهمة رسمية في السويداء.. وعند اللقاء رفض سلطان باشا أن يصافح اليد الممدودة إليه من قبل الجنرال. ثم رفض المبلغ الذي قدمه كاترو إليه.. وهو ألف ليرة ذهبية، تعويضاً له عن داره التي هدمتها الطائرات الفرنسية.. ورد عليه سلطان باشا قائلاً: «إن الدار التي تعجز عن حماية ضيفها يجب أن تبقى مهدمة» ويذكر أن جفنه لم يرف لمنظر الليرات الذهبية، كما وصف ذلك المنظر أولئك الذين شاهدوا الحادثة ورووها فيما بعد..